مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٩) العدد (٩)
الإصدار التاسع والثلاثون
٢٠٢٦ (١-٢٢)

الخلفية الأنثروبولوجيّة لنظرية أفعال الكلام في أثنوغرافيا مالينوفسكي

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

م.د سعد رفعت سرحت

مديرية تربية صلاح الدين

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ سبتمبر ٢٠٢٦م

الملخص

لنظرية أفعال الكلام _على غرار غيرها من نظريات اللغة_ خلفية أنثروبولوجية، فقد تجسدت بدايات التفكير التداوليّ في دراسات الأنثروبولوجي برونسلاف مالينوفسكي بفضل أسلوبه الأثنوغرافي في دراسة لغة البدائيين، إذ كانت نظريته الشهيرة في السياق وليدة دراساته الميدانية في المجتمعات البدائية عندما شغلته لغة السكان الحيّة, ووجد في عدم فهمها عائقًا يحول دون فهم المجتمع. وهنا تظهر أهمية هذه الدراسة التي تُعنى بالوقوف على جذور نظرية أفعال الكلام خارج ميدان اللغة والفلسفة، فقد كثرت الدراسات التي عادت بجذور هذه النظرية إلى إرهاصاتها في الخطاب اللغوي القديم وإلى ميدان الفلسفة، لكن قلّما يتطرق الدارسون إلى جذورها في ميدان الأنثروبولوجيا.

قارب مالينوفسكي قضايا جوهرية تمسّ التداولية، لاسيّما قضية تسييق اللغة قبل أن تتطور لدى فيرث وهايمز, ونظرية أفعال الكلام قبل أنْ تنضج وتكتمل على يد أوستن وجون سيرل. فما شغل مالينوفسكي في اللغة البدائية هو سمتها الفاعلة في الحياة، واقترانها الوثيق بالعمل، فالكلمات لا تستعمل إلّا حين يمكن أنْ تُحدِث فعلًا أو تكون ترجمة للنوازع الاجتماعية، أو إحداثًا لتأثيرات متوقعة في الآخرين. وهنا تظهر الوظيفة الفعلية للغة من كونها قوة بذاتها تُحدِث أشياء في العالم، إنّها سرّ الفعل وسرٌّ لتجلّي الأشياء وتحقيقها, وليست مجرد وصف أو تعريف لها أو ترجمة تقريرية لِمَا في العالم.

وقفت الدراسة عند(فعل التأثير) في الفعل الكلاميّ أيضًا, والذي حدا بالباحث إلى هذا هو أنّ فعل التأثير لم يلق عناية كافية لدى التداوليين عمومًا، وأوستن وسيرل خصوصًا، وهذا عائد على اختلاف زاوية النظر بين الاتجاهين.

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا، مالينوفسكي، أفعال الكلام، اللغة البدائية، اللغة المتجذرة في العمل، فعل التأثير.

Abstract

Like other linguistic theories, Speech Act Theory has an anthropological background. The origins of pragmatic thought can be traced back to the ethnographic studies of the anthropologist Bronislaw Malinowski, particularly his approach to investigating the language of so-called primitive societies. His renowned theory of context emerged from his fieldwork among such communities, where he became deeply concerned with their living language and realized that its incomprehension impeded a proper understanding of the society itself.

The significance of this study lies in its attempt to uncover the roots of Speech Act Theory beyond the traditional domains of linguistics and philosophy. While numerous studies have traced the origins of this theory to early linguistic thought and philosophical inquiry, its anthropological foundations have received comparatively little attention. Malinowski addressed a number of issues that later became central to pragmatics, particularly the role of context in language use long before it was further developed by Firth and Hymes, as well as the relationship between language and action before Speech Act Theory reached its mature form in the works of Austin and John Searle.

What particularly attracted Malinowski's attention in primitive language was its functional role in everyday life and its close association with action. Words, in his view, are employed only when they are capable of performing an action, expressing social impulses, or producing anticipated effects on others. Herein lies the true function of language: it is a force in itself, capable of bringing about change in the world. Language is not merely a means of description, definition, or representation of reality; rather, it is a medium through which actions are performed and realities are created and realized.

The study also focuses on the "Act of Influence" within Speech Act Theory. The researcher's interest in this aspect stems from the observation that the act of influence has not received sufficient attention from pragmatists in general, or from Austin and Searle in particular. This relative neglect can be attributed to the differing perspectives adopted by the two approaches.

Keywords: Anthropology; Bronislaw Malinowski; Speech Act Theory;

Primitive Language; Action-Oriented Language; Act of Influence.

*** المقدمة**

تحاول هذه الدراسة أن تستعرض موقف مالينوفسكي من اللغة وطريقته في التعاطي مع اللغة البدائية، ومدى مطابقتها لنتاجات النظرية التداولية في صيغتها الحديثة، بالتركيز على نظرية أفعال الكلام وأركانها على وجه الخصوص.

ابتكر برونسلاف ماليونفسكي تقليدًا حقليًّا أسماه(الملاحظة بالمشاركة) بالتوافق مع طريقته التجزيئيّة في دراسات المجتمعات البدائيّة بدلًا من النزوع صوب المجتمع كَكُلّ، مجانبًا بذلك التعميمات التي أبدى عدم ثقته بها.

أملت عليه هذه الطريقة تركيزه على النواحي العملية في حياة البدائيين، تلك النواحي التي كانت في نظر سابقيه لا تستحق التسجيل والنظر، فكانت محاولاته في تعلُّم لغة الجماعة الحيّة وملاحظاته الأثنوغرافية الراكزة قد هيأتا له أن يضع يده على جوانب جوهرية في النظرية التداولية قبل بروزها على يد أوستن وسيرل.

إنّ النظر إلى اللغة وفق هذه النزعة ينمّي القدرة على الإحاطة الفعلية بطرق استعمالها وفق سياقات حيّة، أي التعامل معها في حال وقوعها،من دون أدنى توجّه قبلي أو معياري، فمع صنيع مالينوفسكي في دراسة اللغة نكون بحقّ إزاء ثلاثية: (ما ينبغي أنْ يُستعمَل) و(ما يمكن أن يُستعمَل) و(ما هو مستعمل). فقد تعامل مالينوفسكي مع اللغة وفق مبدأ ما هو شاخص ملموس، أي(ما هو مستعمل)، ممَّا جعلنا نكون إزاء اللغة في حالة "الاستعمال"، إذ كان ينظر إلى اللغة بوصفها طريقة عمل، إنّها عمل وتأثير، وهذا ما حدا به إلى أنْ يُعنى بالأقوال في حال استعمالها ومدى فاعلتها إنجازًا وتأثيرًا بدلًا من العناية بالقواعد والاحتكام إلى نتائج من سبقوه من مؤرخين ورحالة وهواة ومبشرين وأنثروبولوجيين، وبدلًا من التقيّد بالمأثورات عن لغة البدائيين التي من شأنها أنْ تقطع صلة البحث بالواقع.

لم نستوفِ كلَّ ما يخصّ أثر مالينوفسكي في النظرية التداولية, فقد قارب مالينوفسكي مسائل لغوية جمّة تخصّ النظام اللغوي والمعنى والاستعمال في أنشطة البدائيين وأنظمتهم, ممَّا يدفعنا ذلك إلى أن نقرّ بالتقصير تجاه الموضوع, ونوصي بضرورة قراءة خطاب مالينوفسكي عن اللغة قراءات أخرى.

*** أثنوغرافيا مالينوفسكي وأثرها في بلورة نظريته في السياق**

كانت الأثنواغرافيا في أساسها دراسة أنثروبولوجيّة مؤسسة تأسيسًا علميًّا على الممارسة الميدانية الممتدة لدى مجتمعات أجنبيّة.[١]إذ كانت ممارسة تستهدف الآخر وتحاصره قبل أن يتَّسع مداها لتشمل النحن والآخر على حدّ سواء.

تنهض الأثنواغرافيا على تجميع البيات ووضع تحليلات لشعوب أو أساليب الحياة خاصة[٢] فهي تلك الدراسة التفصيليّة للعادات والاعتقادات والحياة الاجتماعية. ولكن مفهوم الأثنوغرافيا لا يتضح عند هذا الحدّ ما لم يُشفع بما يميزه عن مفهومين آخرين يلتبسان به, وهما الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا.

ما يميّز الأثنوغرافيا عن الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا هو أنّ الأثنوغرافيا ممارسة قائمة على الالتقاط, فتجهد لأنْ تكون

(١) ينظر: القريب والبعيد قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، حسن رشيق:٤٨

(٢) ينظر: معجم العلوم الاجتماعية، تحرير كريغ كالهون:٦٩

في حدود الوصف، أمّا الأثنولوجيا فتلك الدراسة المرتكزة ميدانيًّا على المقارنة الإقليميّة. على حين تنحو الأنثروبولوجيا إلى العموم والكليّة، فالأنثروبولوجيا هي الجهد النظري المقدَّم فلسفيًّا للإعمام حول الثقافة الإنسانية والمجتمع على أساس الجهود البحثية للمجالين السابقين.[٣]

إنّ حقّ الممارسة الأثنوغرافية أنْ تكون إيغالًا وتموضعًا داخل الثقافة التي هي محل الدرس والنظر، إذ ليس ثمة أثنوغرافيا عن بُعد، ولا أثنوغرافيا مكتبيّة، الأثنوغرافيا إجرائيّة ميدانيّة دائمًا، على خلاف الفرعين الآخرين: الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا.

المبتغى الأمثل للدراسة الأثنوغرافية هو أنْ يكون الأثنوغرافي مشتركًا مباشرًا في الجماعة. لذا كانت للأثنوغرافيا طريقتان: تقوم الطريقة الأولى على المسح الرّحليّ لتجميع البيانات الذي كان يقوم به الهواة والرحالة والمبشرون، لكنّ طريقة المسح هذه تميزت بالعموم والنظرة الاختزالية المفتقرة إلى العمق والتفصيل والمباشرة في وصف الظواهر، فهي تعبّر عن مرحلة لم تكن الدراسة الأنثروبولوجية قد بلغت مرحلة النضج والاستواء, فكانت لا تخلو من النزعات التأملية والابتعاد عن التجربة.

أمّا الطريقة الأخرى فقد قامت على طريقة(الملاحظة بالمشاركة) تلك الطريقة التي أرساها مالينوفسكي، وهي طريقة تتأسى بقواعد المنهج لدى دوركايم وبواز، إذ برزت إثر تحسن معايير البحث العلمي وبلوغ البحث الأنثروبولوجي مرحلة النضج والتقانة، فالأساس الذي تقوم عليه أثنوغرافيا مالينوفسكي الانخراط الثقافي المباشر من خلال تقانة المعاينة وتقانة المقابلة اللتين أصبحتا تقليدًا مهيمنًا لدى الانثروبولوجيين من بعده.[٤]

ولكي تكون الدراسة التشاركية مركزة مبتغية الدقة عليها أنْ تكون تجزيئية وليست كليّة، أي عليها أنْ تقلِّص الميدان وتضيّق على نفسها النظر، من هنا سعى مالينوفسكي إلى التجزيئية والتضييق فجاءت نتاجاته دقيقة وملاحظاته مركّزة .لذا عالج مالينوفسكي مشكلات المعنى والاستعمالات البراغماتية للكلام البدائي مقاربًا ما تناوله أوغدن وريتشاردز وما يقدمه التداوليون اليوم بطريقته الأثنوغرافية،أي بالرجوع إلى الوقائع الملموسة والفعلية في حياة البدائيين، فقد قارب كلّ ذلك من خلال تضييق التجربة الأثنوغرافية وتركيزها على وقائع حيّة.[٥]

توافقت نظرة مالينوفسكي مع أفكار المدرسة الوظيفية التي أسّس لها أميل دوركايم، ولكن بشيء من التحفّظ، فالوظيفيون على اختلاف رؤاهم ومشاربهم مجتمعون على فكرة الكلية وانضمام قيمة الجزء للكلّ، أي انصياع الأفراد للكلّ الاجتماعي، لكنّ مالينوفسكي كان انتقائيًّا إلى حدّ ما، فقد كانت نظرته ترتكز على الفرد ومنه للمجتمع بخلاف الدوركايميين الذين آثروا العكس بأنْ جعلوا للمجتمع قوة جبرية تغطّي على إرادات الأفراد وتنسحب على ملكاتهم فتحدّ من إرادتهم وخياراتهم، فالأفراد في نظر مالينوفسكي هم الغاية والهدف النهائيّ للنّسق، فقد وجدت المؤسسات من أجل الناس

(٣) ينظر: تاريخ النظرية الأنثروبولوجيّة، توماس هايلاند أريكسون، فين سيفرت نيلسون:٧٧

(٤) ينظر: ينظر: معجم العلوم الاجتماعية، تحرير كريغ كالهون:٦٩

٥( ) ينظر: السجر والعلم والدين: ٣٩٩

وليس العكس.[٦] وهنا يجب التنبيه إلى أنّ المقصود من ارتكاز مالينوفسكي على الفرد لا يعني الفرد بعينه بمعزل عن الجماعة, بل يراد بذلك الفرد, وهو منخرط في صِلاته بالآخرين, فالفعل لكي بكون اجتماعيًّا ينبغي أنْ يكون تشاركيًّا.

مع ذلك ظلت طريقة مالينوفسكي عمليّة متوافقة مع قواعد المنهج لدى دوركايم الذي كان يوصي بأن تكون الدراسة والجدولة في المجتمعات التي هي قيد البحث((بناءً على ما يبدو من درجة تركيبها، وذلك بأنْ نتخذ أبسط المجتمعات تركيبًا أو المجتمع المكون من جزء واحد أساسًا لهذا التصنيف.))[٧] على هذا أسِّست الوظيفية البنائية من بعده على((المنهج التركيزيّ أو منهج التحليل الرأسي vertical analysis الذي ينظر بموجبه إلى المجتمعات المحلية على أنها تمثّل وحدات دراسة مستقلة بذاتها, يمكن دراستها بواسطة المنهج التقليدي في الأنثروبولوجيا الذي يقوم على الإقامة الدراسية والملاحظات بالمشاركة))[٨].

وهنا يأتي دور مالينوفسكي في اختراع طريقة حقلية جديدة عرفت بالملاحظة المشاركة، مع أنّ هذه الطريقة تقوم على فكرة مبسطة، مؤداها الانخراط في الجماعة لالتقاط الفكرة الاجتماعية متجسدة في العادات والنصوص عن طريق إخضاع السكان الأصليين لضروب من الاختبارات تتعلق باستجاباتهم.[٩] فهذه الطريقة تكاد تكون تقليدية لم تفت الرحالة والهواة قديمًا، بيد أن الجديد والثوريّ في طريقة مالينوفسكي هو((ما يقف وراءها، وهي أن يعيش الطالب مع البشر الذين يدرسهم، وأن يتعلم كيف يشاركهم بقدر المستطاع في حياتهم ونشاطاتهم، بالنسبة لمالينوفسكي كان الأساس أن يبقى في الحقل بما فيه الكفاية ليصبح محيطًا على نحو متداخل بالطريقة المحلية للحياة، أن يكون قادرًا على تعلم اللهجة المحلية كلغة عمل، إذ لم يعد المترجمون والمقابلات الرسمية والابتعاد الاجتماعي ليفعل شيئًا))[١٠].

إنّ الانثروبولوجيا التي كان مالينوفسكي يطمح إليها أنثروبولوجيا متكافئة ونسبيّة غير مغرضة، ترى عالم اليوم بمنظار العالم في أمسه الغابر، ولا يبني على ما يراه إحساسًا بالتفوق على حساب دونية الآخر. يقول((إنّ الأنثروبولوجيا يجب ألّا تكون مجرد دراسة لعادات المتوحش في ضوء عقليتنا وثقافتنا، بل أيضًا دراسة عقليتنا في المنظور البعيد المستعار من إنسان العصر الحجري, فعن طريق المكوث عقليًّا لبعض الوقت بين شعب ذي ثقافة أبسط بكثير من ثقافتنا قد نكون قادرين على رؤية أنفسنا من مسافة بعيدة، وقد نتمكن من اكتساب شعور جديد بالنسبية فيما يتعلق بمؤسساتنا ومعتقداتنا وعاداتنا.))[١١]

من هنا تميزت نتاجات مالينوفسكي بالعمليّة المثمرة، فقد كشفت أعماله على نحو واضح بعدم جدوى المقاربة الأثنولوجيا، إذ خلت نتاجاته من خصائص المقارنة، فأخذ دوره في تدفق الحياة بين سكان التروبرياند الأصليين يلتقط من هنا وهناك السلوكيات والمظاهر ويجمع البيانات عن ملكية الأرض والزراعة وتبادل الهدايا وأنماط التجارة والصراعات السياسية والاعتقادات، وقام بمقابلات مقنعة حيثما شعر بضرورتها، وهذا ما حال بينه وبين وضع مجتمع الدراسة في سياق تاريخي وإقليميّ

(٦) ينظر: تاريخ النظرية الأنثروبولوجية:٧١
(٧) قواعد المنهج في علم الاجتماع، أميل دوركايم: ١٨٦.
(٨) علم الاجتماع النظرية والتطبيق، علاء الدين البياتيّ: ٦_٧.
(٩) ينظر:السحر والعلم والدين ومقالات أخرى، برونسلاف مالينوفسكي:٣٥١_٣٥٢.
(١٠) تاريخ النظرية الأنثروبولوجية:٧٠.
(١١) السحر والعلم والدين: ٢١٢.

أوسع لأنّ العمل التجزيئي المكثف شغله عن ذلك. ولكن هذا يحسب له على الصعيد العمليّ، إذ يبدو أنّ رهانه على الوظيفية تميّز بالقوة والإصرار، الأمر الذي جعل من نظرته تتوافق إلى حدّ غير قليل مع رهانات التداوليين التي أفرزتها الثقافة الانكلوسكسونية في أيامه.

كان لمالينوفسكي موقف سلبي من الطريقة التي يعتمدها الهواة والمبشرون في الملاحظة وادعائهم المشاركة، فقد وجه نقدًا كان بمنزلة مانيفستو ينتقد فيه ذلك النوع من المستكشفين المغرضين والضباط والمبشرين الاستعماريين مهما كانت نواياهم حسنة، فأولئك كانت ملاحظاتهم مستهجنة بقوة مقارنة بالعقل الذي يسعى وراء وجهة نظر علمية وموضوعية للأشياء. فكان ظهور طريقته مدروسًا ومسؤولًا إلى حدّ أنّه انتصر لها ميدانيًا وفكريًّا، ففي دراسته الكلاسيكية الموسومة بـ(مغامرو المحيط الهادئ – Argonauts of the Western Pacific)المنشورة عام ١٩٢٢استند إلى عمل ميداني قاده لمدة عامين في جزر تروبرياندTrobriand ،حتى نصب مخيمه وانغمس بالكلية في بيئة عمله الجديدة على الشاطئ، لا على شرفة ضابط المقاطعة الاستعمارية هناك.[١٢] بحقّ كان مالينوفسكي متموضعًا بشغف وأمينًا في نقل طرق تفكير البدائيين من وجهة نظرهم هم.

أولى مالينوفسكي اللغة المحلية للسكان الأصليين أهمية كبيرة كما قلنا، جهد إلى تعلمها، بالنظر إلى أنّها المفتاح السحريّ للدخول إلى ثقافة المجتمع. يقول:((إنّ دراسة أي لغة يتحدث بها شعب يعيش في ظلّ ظروف مختلفة عن ظروفنا وثقافة مختلفة عن ثقافتنا يجب أن تجري بالاقتران مع دراسة ثقافته وبيئته))[١٣]. هكذا تظهر عند مالينوفسكي بوادر الدراسة الجادة للغة الطبيعية، ذلك((أنّ الدراسة الجادة للخطاب المنطوق لم يسبق إليها اللغويون، وإنّما سبق إليها ونبّه إلى أهميتها الاجتماعية علماء الاجتماع والأنثروبولوجيون)).[١٤]

إن عناية مالينوفسكي باللغة الطبيعة في حال استعمالها تعدّ أحد القواسم المشتركة بينه وبين الرمزيين من جهة, وبينه وبين السياقيين من جهة, وبينه وبين التداوليين من جهة أخرى، إذ يراهن التداوليون على اللغة الطبيعية، فقد ظهرت التداولية تكميلًا لنظريات البراغماتية الفلسفية والتحليل المنطقي وتحليل لغة الحياة اليومية، وكلّ النظريات التي سعت الى الكشف عن الأثر الفعلي المنفعي للغة في حياة الإنسان. من هنا أخذ التركيز على اللغة الطبيعية يصبح مشروعًا وله مقبوليته في الأوساط وذلك بالنظر إلى أنّ اللغة المؤسسيّة لا تخلو من صبغة اصطناعيّة تنأى بها عن الاندماج الاجتماعيّ، من هنا دعا فيرث((منذ أكثر من نصف قرن إلى دراسة المحادثة، حيث إنّها المفتاح إلى فهم أفضل لأهمية اللغة ووظيفتها)).[١٥]

توزعت اهتمامات مالينوفسكي باللغة على قسمين: الحقليٍ والنظري، إذ لم تكتفِ صلته باللغة في حدود الحقل والعيش بين البدائيين، بل نجح في تحويلها إلى دراسة علمية تتوجت بنظريته الشهيرة عن(سياق الحال) وبنظرته التداولية المبكرة للغة[١٦], قبل أن يتلقفها منه فيرث ودل هايمز. فقد

(١٢) ينظر: كيف تفكر كأنثروبولوجي, ماثيو أنجيلكه:٢٣-٢٤.
(١٣) السحر والعلم والدين ومقالات أخرى، مالينوفسكي: ٣٨١.
(١٤) علم اللغة، محمود عكاشة: ٢١٥.
(١٥) المصدر نفسه: ٢١٥ الهامش.
(١٦) ينظر:المنهج التداولي محاولة لتأسيس منهج سوسيو-أنثروبولوجي جديد, د.يحيى حسين زامل:٦٩.

تزامنت جهوده اللغوية مع بروز الحاجة إلى دراسات تستهدف مشكلة المعنى على مثال ما قام به أوغدن وريتشاردز في كتابهما الشهير(معنى المعنى).فليمالينوفسكي مقال مهم ألحق بكتابهما هذا.[١٧]

يرى هؤلاء أنّه لا يوجد دليل مضلّل للمعرفة أكثر من اللغة, لعل هذه الفكرة البراغماتية صادفت أهواء مالينوفسكي في الحقل الأنثروبولوجي، لذا تجده يبادر إلى القول بأنّ تفسير المفردات لدى البدائيين ينبغي أنْ يجري وفق عاداتهم وسلوكياتهم، بمعنى أنّ اللفظة ينبغي أن تُفسر في سياق العمل، فلغتهم لا تقل تزويقًا وزركشةً وتضليلًا عن لغتنا, فما يقدمه مالينوفسكي يعدّ في جانب منه((الإثبات الأثنوغرافي والنشوئيّ لآراء أوغدن ورتشاردز في المعنى والتعريف.))[١٨]

إنّ الخلفية الأثنوغرافية لا غنى عنها للمعالجة العلمية للغة، ولكنها ليست كافية فمشكلة المعنى في حاجة إلى نظرية خاصة تعالجها علميًّا. وهنا تأتي نظرية السياق لتبين أنّ((الكلام والظرف مرتبطان بعضهما مع بعض بشكل لا ينفصم في كلّ حالة، فإنّ الكلمة من دون سياق لغويّ هي مجرد شيء من نسق الخيال ولا تعني شيئاً في حدّ ذاتها، لذلك في واقع اللغة المحكية لا معنى للكلام إلّا في سياق الظرف الذي يقال فيه))[١٩], وهنا يبرز الفرق بين اللغوي والأثنوغرافي،((إنّ وجهة نظر العالم اللغويّ الذي يتعامل فقط مع بقايا اللغات البائدة يجب أن تختلف عن وجهة نظر الأثنواغرافي المحروم من البيانات الثابتة المتحجرة من الكلام المنقوش، الذي يتعين عليه الاعتماد على الواقع الحي للغة المحكية)).[٢٠]

وتظهر هنا, أيضًا, مدى القرابة بين البحث الأثنوغرافي والبحث الرّمزي في اللغة لدى أوغدن وريتشاردز، إذ جاءت تحليلات مالينوفسكي على المعنى في اللغات البدائية متوافقة لنظريتهما فالطرفان يقرّان بالسياق بوصفه المحكّ الذي تتميز به اللغة في حال الاستعمال عن اللغة في حال تغييب سياقاتها، ولذا كان القول بالنسبية الرمزية للغة رهانًا في الدرس الأثنوغرافي، إذ لا معنى مطلقًا لأية كلمة ولا وجود لها مستقلّة مكتفية بذاتها عن الظرف الذي قيلت فيه، فلكلّ ثقافة نمط عيش مختلف، لها رؤاها للعالم, فلا يمكن تفسير الجهاز اللغوي الكامل لأية ثقافة.

أولى العقبات التي واجهت مالينوفسكي هي الترجمة على الرّغم من اندماجه في الجماعة البدائية. يقول:((لذلك عليّ أن أوضح في حالتي الخاصة حالة باحث أثنوغرافي يدرس العقلية والثقافة واللغة البدائية، كيف كنت مدفوعًا بشكل كبير جدّا إلى نظرية لغوية على خطوط موازية لتلك الموجودة في العمل الحالي، وقد جمعت في سياق أبحاثي الأثنواغرافية بين بعض القبائل الميلانيزية في شرقي غينيا الجديدة التي أجريتها حصرًا بواسطة اللغة المحلية، عددًا من النصوص: صيغًا سحرية، وموادًا من الفلكلور، وحكايات، وأجزاء من المحادثات، وروايات من الأخباريين الذين تعاملت معهم. وعندما حاولت ترجمة نصوصي

(١٧) ترجم المقال ترجمتين:ترجمة عمران أحمد, إذ ضمن المقال في كتاب(السحر والعلم والدين ومقالات أخرى), وهنا اعتمدت الدراسة على هذه الترجمة. والترجمة الأخرى للدكتور كيان أحمد حازم يحيى ضمن كتاب(معنى المعنى دراسة لأثر اللغة ولعلم الرمزية) أوغدن وريتشاردز.

(١٨) معنى المعنى دراسة لأثر اللغة ولعلم الرمزية, أوغدن وريتشاردز: م قدمة للدكتور كيان أحمد حازم يحيى للمقال:٤٤٦_٤٤٧.

(١٩) السحر والعلم والدين: ٣٨٣.

(٢٠) المصدر نفسه: ٣٨٣.

إلى الإنجليزية في أثناء إعداد هذه المادة اللغوية، وكتابة مفردات وقواعد اللغة، واجهتني صعوبات أساسية)).[٢١]

وجد أنّ البحث عن مقابل دقيق للكلمات أمر صعب المنال، لأنّ الألفاظ لا تُقابل بألفاظ، بل ينبغي أن تنقل معها _بلهَ الظروف التي قيل فيها_ أحاسيس ورؤى وأهداف الجماعة، فكلّ((كلمة هي بوضوح غير موجودة في اللغة الإنجليزية ولا في أي لغة أوربية، ولا يمكن ترجمة كلمات من هذا القبيل إلى الإنجليزية عن طريق مكافئها التخييليّ... بل عن طريق شرح معنى كلّ منها عبر وصف أثنوغرافيّ دقيق لسوسيولوجيا ذلك المجتمع الأهلي وثقافته وتقاليده.)).[٢٢]

إن كان هذا شأن المفردات وإباؤها على الترجمة، فالأمر كذلك مع الأساليب، لأنّ((الأسلوب برمته الذي تستخدم فيه اللغة الأم مختلف عن أسلوبنا، إنّ التركيب النحوي بكامله في اللغة البدائية يفتقر إلى دقة ووضوح التركيب النحوي في لغتنا، على الرّغم من أنّه معبر للغاية بطرائق خاصة معينة، من ناحية أخرى تعطي بعض الأدوات غير القابلة للترجمة إلى اللغة الإنجليزية إطلاقًا نكهة خاصة للعبارات المحلية، وتخفي البساطة الشديدة بين بنية الجملة قدرًا كبيرًا من الصور التعبيرية وغالبًا ما تتحقق عن طريق الموضع والسياق بالعودة إلى معنى الكلمات المعزولة واستخدام الاستعارة وبقايا التجريد والتعميم والغموض المترافق مع التحديد الشديد للتعبير، كلّ هذه السمات تحبط أي محاولة للقيام بترجمة بسيطة ومباشرة)).[٢٣]

لكنّ هذه الرؤية واجهت مزيدًا من الاعتراضات ,فمن ذلك اعتراض(بالمر) حين رأى أنّ عينة مالينوفسكي كانت تشكّل إصرارًا على بدائية لغة تتعلق بالحاجات الأولية التي تأمن العيش وليست متطورة, وأن تقصيره يكمن في ربط فكرة سياق الحال باللغات البدائية وتجاهل اهتمامات المجتمع, مع أنّ اللغة_أيّة لغة_ لا تتفاضل ولا تتأبى على سياق الحال, فليست هناك لغة متأخرة ولغة متقدمة. اللّغات تتقدّم وفق الاهتمامات ومطالب المجتمع. [٢٤]لكن الملحظ _كما سيتضح بعد_ أنّ مالينوفسكي يعي جيدًا أنّ بدائية لغة البدائيين ليست متجذرة فيهم, وإنّما تعود بدائية اللغات وتقدمها إلى الأطر الاجتماعية ومطالب الناطقين بها وأهدافهم.

لكنَّ بالمر مع ذلك مقرّ بفضل مالينوفسكي إلى دراسة اللغات الحيّة, وسبقه إلى القول بأنّ اللغات المحفوظة المبتوتة الصلة بسياق حالاتها لا تعكس حقيقة اللغة.

بهذا نكون هنا قد بيّنا الظروف والدواعي التي دفعت مالينوفسكي للنظر إلى اللغة بوصفها فعلًا فعلى غرار الوضعيين يؤمن مالينوفسكي بفعليّة المعنى في لغة البدائيين, ففي لغتهم((تعني الكلمات بقدر ما تفعل))[٢٥] وإلَّا فمشكلة فهمنا للإنسان تكمن في اللغة التي تغترب عن العمل فلا تحيل إلَّا على نفسها بدلًا من الإحالة على الوقائع، وهذا هو عين الرهان التحليليّ لدى الوضعيين الذين رأوا أنّ مشكلة الفلسفة هي في الأساس مشكلة لغوية لا غير[٢٦]، ذلك أنّ لغة الفلسفة تنهض على التضليل وحجب الحقائق أكثر من تقديمها وإيضاحها[٢٧],

(٢١) المصدر نفسه: ٣٦٨.
(٢٢) المصدر نفسه: ٣٦٩.
(٢٣) المصدر نفسه:٣٧٠.
(٢٤) ينظر:علم الدلالة, بالمر:٦١-٦٢.
(٢٥) السحر والعلم والدين:٤٠٦.
(٢٦) ينظر_كمثلًا_رسالة منطقية فلسفية: مقدمة برتراند رسل:٣٢ -٣٣.
(٢٧) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة, د.عبد الرحمن بدوي: ٢٤٦.

ومن ثَمَ جاء رهان فتجنشتين البراغماتي للمعنى على أنّه((إذا لم يكن هناك ضرورة لعلامة ما فإنَّها تصبح عديمة المعنى.))[٢٨] ذلك أنّ لغة الفيلسوف لا تختلف كثيرًا عن لغة الشاعر والمشعوذ!. وكلّ هذا التضليل نابع من الحديث عن أشياء لا وجود لها أو من تغييب سياقات القول، ممّا يعني أنّ استعمال اللغة في ظلّ(سياق الحال) هو المطلب الأسمى لأنْ تكون اللغة أكثر فاعلية، فسياق الحال عند مالينوفسكي إنّما هو سياق عمل!.

*** عندما يكون التواصل اللفظيّ فعلًا**

شكلت أفكار مالينوفسكي حول اللغة وطابعها البراغماتيّ البذرة التي انطلقت منها البراغماتية المعاصرة، إذ كان الرّهان على النظر إلى اللغة بوصفها عملًا قائمًا إلى حدّ في المضامير الفكرية الأوربية آنذاك،((فمصطلح فعل اللفظ verbal act الذي يستعمله مالينوفسكي كان يماثل مصطلح فعل الكلام speech act عند أوستن، فقد ابتكره في نفس الحقبة)).[٢٩]

يرى مالينوفسكي أنّ اللغة في طورها البدائي تمتاز بالعملية، وهو هنا يتفق مع الأنثروبولوجيين الذين يرون أنّ البدائي إنسان براغماتيّ بالطّبع، إذ لا تلهه نزعات فرديّة عن نزعته الجماعية، وهذا ما انعكس بقوة لافتة في مشروعه. يقول:((إنّ للغة طابعًا براغماتيّا أساسيًّا في وظيفتها البدائية وشكلها الأصلي، إنّها طريقة سلوك وعنصر لا غنى عنه للعمل البشري الجماعي، وعلى النقيض أنّ اعتبارها وسيلة لتجديد الفكر أو التعبير عنه هو بمنزلة أخذ نظرة أحادية الجانب على واحدة من أكثر وظائفها ثانوية وتخصّصً)).[٣٠]

تقوم نظرية أفعال الكلام على أنّ ما نقوله نفعله بواسطة اللغة، ففلسفة الفعل الكلاميّ تدور على إمكان أن يستحيل التواصل اللفظيّ إلى عمل منجز, وهذا ممّا وقف عنده مالينوفسكي في نتاجاته الميدانيّة، وإن لم تظهر لديه بصورة مقنّنة كما تظهر عند أوستن وسيرل، فللفعل الكلاميّ أركان ثلاثة: فعل القول، والفعل الإنجازيّ والفعل التأثيري.[٣١] ولتوضيح هذه الأركان: –

١– حين تتفوه بالكلمات(تحقّق فعل القول في حدّ ذاته)

٢– حين تخبِر أو تنفي أو تستفهم ..إلخ(تحقّق الفعل الإنجازي).

٣– حين تؤثّر في المستمع(تحقّق الفعل التأثيري)

لو أخذنا هذا المثال:(أرسبت في الامتحان؟.) لرأينا أنّا بإنتاجنا هذه الأصوات وتركيبنا الكلمات(نحقّق فعل القول). وبالقوة الإبلاغية للهمزة(ننجز سؤالًا) وقد يستلزم هذا السؤال قوة أخرى مثل الإنكار, وبهذا (نحقّق الفعل الإنجازي). وحين يستجيب لنا السامع ،أو تنشأ آثار النّدم على وجهه مثلًا أو ينفعل, بهذا(نحقّق الفعل التأثري).

مع أنّ وعي مالينوفسكي بمضمون أفعال الكلام لم يظهر بهذه الصورة المقننة، ولكنّه قارب خلاصتها ومغزاها، لذا يسأل مالينوفسكي: هل يمكننا عدّ التواصل اللفظي طريقة عمل؟. وما علاقة ذلك مع تصورنا الأساس لسياق الظّرف؟.

---

(٢٨) رسالة منطقية فلسفية: ٧٩.
(٢٩) الأنثروبولوجيا الألسنية، أ لسندرو دورانتي: ٣٥٧.
(٣٠) السحر والعلم والدين ومقالات أخرى, مالينوفسكي: ٣٩٩.
(٣١) ينظر: نظرية الأفعال العامة_كيف ننجز الأشياء بالكلام، جون لانكشو أوستن:١٢٣. كذلك: اللسانيات الوظيفية مدخل نظري: أحمد المتوكل: ٢٤.

بهذا السؤال استطاع أن يقارب لبّ النظرية، إذ يرى أنّ الصبغة العملية طاغية على تبادلات الكلام لدى البدائيين،((فعن طريق تبادل الكلام الذي يشكل ثرثرة عادية, ويتوقف الظرف كلّه على ما يحدث لغوياً, كلّ لفظة هي فعل يخدم الهدف المباشر المتمثل في ربط المستمع مع المتكلم عن طريق ربط بعض المشاعر الاجتماعية أو غيرها. مرة أخرى لا تظهر اللغة لنا في هذه الوظيفة كأداة للتأمل بل كوسيلة للعمل.))[٣٢] وهذا شيء مطابق لما في التداولية من أنّ الغاية من الكلام ليست الوصف والإخبار والتأمل, بل إنجاز فعل.

اللغة بكونها عملًا شيء متجذّر في الطبيعة البشرية، من هنا يحاول مالينوفسكي تأكيد هذه الفرضية النشوئيَّة في لغة الأطفال، يقول:((الطريقة التي يجري فيها استخدام العناصر الأولى للكلام الملفوظ بشكل واضح هي النقطة التي تثير الاهتمام حقاً والتي تعنينا في هذا الصدد, إنّ الكلمات الأولى(ماما، دادا أو بابا) وتعابير عن الطعام، الماء، ألعاب معينة أو حيوانات, لا يجري تقليدها واستخدامها ببساطة للوصف أو التَّسمية أو التحديد ومثل التعابير العاطفية السابقة غير الملفوظة بوضوح، يبدأ أيضاً استخدام هذه الكلمات المبكرة تحت وطأة المواقف المؤلمة أو المشاعر القوية. عندما يبكي الطفل من أجل والدته أو يفرح عند رؤيتها، وعندما يطالب بالطعام, أو يكرر بمتعة أو إثارة اسم بعض الألعاب المفضلة في محيطه, هنا تصبح الكلمة بمنزلة ردّ فعل له مغزى، مكيفاً مع الظرف، ومعبراً عن الحالة الدّاخلية، ومفهوماً للمحيط البشري.))[٣٣]

وبما أنّ التفكير البدائي يتناسب مع بدايات البشرية وطفولتها_حسب وجهة نظر نشوئيّة_ فإنّ مالينوفسكي يسحب هذه الفرضية ويأتي لتأكيدها على البدائيين, وليس في هذا تقليلٌ للذهن البدائي, بل أكيدٌ لكون النزوع البراغماتي مطلب بشري جماعيّ بالطبع. يقول:((إذا نقلنا الآن هذا التحليل إلى ظروف الجنس البشري البدائي، لمن الأفضل عدم الانغماس بشكل أساسي في تخيّلات, ومن ثم في تخمينات لا طائل منها حول بدايات الكلام، ولكن ببساطة إلقاء نظرة على الاستخدامات العادية للغة كما نراها في الملاحظات التجريبية لدى المتوحشين... من السكان الأصليين المنخرطين في نشاط عملي نراهم يستخدمون كلمات تقنية وأسماء أدوات وأنشطة محددة. تُستخدم كلمة تدلّ على أداة مهمة في العمل، ليس للتعليق على طبيعتها أو تبيان خصائصها، بل لجعلها تظهر أو كي تُناول إلى المتكلم أو إرشاد رجل آخر إلى استخدامها المناسب, يتكون معنى الشيء من تجارب استخداماته النشطة وليس من التأمل الفكري. وهكذا، عندما يتعلَّم المتوحش استنتاج معنى كلمة ما، لا تُنجز هذه العملية عن طريق التفسيرات من خلال سلسلة من أفعال الإدراك المترابطة، بل عن طريق تعلّم كيفية التعامل معها. تعني كلمة ما للمواطن الأصلي الاستخدام السليم للشيء)).[٣٤]

يتطابق كلام مالينوفسكي هنا مع التداوليين, فمثلًا حين يقول أحد البدائيين للآخر: (الفأس). فهذا فعل لغويّ طلبي أو إرشادي يفهم حسب ظرف العمل, ولا يراد به الإشارة إلى الفأس أو وصفه, بل يريد(ناولني الفأس) أو(امسك الفأس)

(٣٢) ينظر: السحر والعلم والدين: ٣٩٦-٣٩٧.
(٣٣) المصدر نفسه: ٤٠٥.
(٣٤) المصدر نفسه :٤٠٥-٤٠٧.

ويلحظ هنا أنَّ فعل مناوشة الفأس أو مسكه دخل حيز الإنجاز بالتزامن مع الحاجة إلى الفأس في العمل.

هكذا الحال لدى الأمين في المجتمعات المتحضرة، إذ يكون استعمال الكلمات فاعلة وعملية يتزامن مع الإنجاز، فلا تُنطق الكلمة للوصف أو ترجمة عمّا يساور النفس أو عمّا يدور في الباطن حتى على صعيد الاستعمال العادي للغة تكون الرابطة بين الدّال والمدلول أكثر من مجرد عرف فالأميّ يعامل الكلام بالطريقة ذاتها التي يتعامل معها البدائي، إذ ترتبط الكلمة ارتباطًا وثيقًا بواقع الفعل.[٣٥]

وهذه الملاحظة يستطيع الإنسان المتحضر اليوم لحظ تجلياتها عند الأميّ وكبار السنّ، خذ مثلًا حين يسأل الطفل جدّه عن مصروفه اليوميّ، فعند الاستجابة ترى الجدّ وهو يناول حفيده ينطق:(هاك يوميتك_خد يا سيدي) فيتزامن النطق والعطاء والتسلّم في لحظة واحدة.

وممّا يؤيد تشابه الأميّ والبدائي على هذا الصعيد العملي عند استعمال اللغة أيضًا أنّهم يثمنون المأثورات الشفوية كالأمثال والحكم والأقوال المأثورة والأخبار، لأنّ هذه الأنماط تكاد تكون الشكل الوحيد للحكمة في نظرهم[٣٦].

ما يريد أنْ يقوله مالينوفسكي هو أنّ التعاطي مع اللغة((في المجتمعات البدائيّة لا يختلف كثيرًا عمّا هو موجود في مجتمعاتنا نحن)).[٣٧] فممّا أثاره هو أنّ الحسّ العملي ليس هو الغاية الوحيدة من استعمالات اللغة في حياة البدائيين, وإنّما من غاياته إشباع غريزة التجمّع، فعبارات مثل:(كيف حالك؟. _آه ها أنت_ من أين أتيت؟ _اليوم يوم جميل) تعدّ كلّها في مجتمع أو آخر صيغًا للتحية والتقارب ففي الإنسان دأبًا ميل فطريّ للاستئناس والاجتماع والاستمتاع بصحبة بعضهم بعضًا، فالكلام هنا هو الشكل الأمثل للمبادلة الحميمية وإشباع هذا الميل في البشر.[٣٨]

ولتأكيد هذا يأتي مالينوفسكي إلى تفسير(الصمت) تفسيرًا تداوليًّا ثقافيًّا، فإذا كان الكلام ضرورة من ضرورات الإنسان الطبيعيّ، فإنّ الصمت بمنزلة خرق لهذه الطبيعة، فالصمت في نظر البدائيين لا يبعث على الاطمئنان، إنّه شيء خطير يثير القلق، فالغريب الذي لا يجيد التحدّث بلغتهم ينزل منزلة العدو الطبيعي للمجتمع، حتى عند الطبقات غير المتعلمة في المجتمع الأوربيّ لا يعني الصمت الجفاء فحسب، بل يعني مباشرة طابعًا سيئًا، لذا كان كسر الصّمت والتواصل بالكلمات بادرة لا بدّ منها لإشباع الميل البشريّ للاجتماع وإقامة روابط الزمالة، وهكذا فإنّ عبارات مثل(اليوم يوم جميل) في الإنجليزية، و(من أين أتيت؟) في الميلانيزية، تعدّ ضرورة من ضرورات تجاوز التوتر والأحاسيس غير السارة التي يشعر بها البشر عند مواجهة بعضهم بعضًا.[٣٩]

لم يبنِ مالينوفسكي نتاجاته على التخمين والتأمل, بل راقب استعمال البدائيين اللغة في سياق العمل مثل الصيد البريّ، أو الصيد البحريّ، أو الحراثة، أو في سياق التباري كالحرب أو المغامرة أو الرياضة، أو أي أداء شعائري أو عرض فني كالرقص والغناء، يلحظ هنا أنّ الفاعلين في أي مشهد

(٣٥) المصدر نفسه: ٤٠٨.
(٣٦) المصدر نفسه: ٤٠٨.
(٣٧) المصدر نفسه: ٣٩٥.
(٣٨) ينظر: المصدر نفسه: ٣٩٤.
(٣٩) المصدر نفسه:٣٩٤.

يتبعون نشاطًا هادفًا نحو هدف محدد، فيتصرفون بطريقة منسقة وفق قواعد معينة في ظل وجود عادات وتقاليد، فالكلام وسيلة ضرورية للتواصل، فمن دونه لا يكمن إتمام تواصل وتوافق فعال لأداء عمل جماعيّ.

يسوق مالينوفسكي لتأكيد وجهته مثالاً عن صيادي السمك في بحيرة مرجانية يتابعون حركة الأسماك محاولين حصرها بالشباك لدفعها نحو جيوب صغيرة في الشبكة، فعندما يرى أحدهم السمكة يقوم بإطلاق علامات أو أصوات أو كلمات معتادة، أو جملة مليئة بالإشارات التقنية ،وعندئذٍ تتوقف الزوارق وتتوزع مهام العمل على الصيادين وفق عادة متبعة، وبين الحين والآخر ينطق الرجال أصواتًا متزامنة مع العمل، تعبيرًا عن الحماس أو عن نفاذ الصبر أو عن فرحة الإنجاز.

ومن جانب آخر تسمع هنا وهناك كلمات أو أوامر وإيعازات لتنسيق السلوك، إذ تعمل المجموعة بأكملها بطريقة معينة نتيجة التقاليد المألوفة والتجارب الجماعية عند الصيد، فيلقون الشباك فيغطس بعضهم ويقف آخرون بوضع استعداد لالتقاط الأسماك...فبعد أن أنجزوا المهمة يتكلم الصيادون بصوت عال, فتنطلق علامات تعجب قصيرة معبرة وكلمات:(اسحب_ اترك_ إزاحة أكثر_ ارفع الشبكة...إلخ) أو تنطلق تعابير تقنية غير قابلة للترجمة، فترتبط كلّ كلمة وكلّ علامة بسياق الظَّرف وبالهدف من النشاط. فهذه المواد اللغوية والإدارية غير منفصلة عن مسار العمل، فالكلام مضمّنٌ في العمل.

وما يستوقف ماليوفسكي هنا أنّ اللغة التقنية التي تصاحب هذه الأنشطة تكتسب معناها وتُتعلّم في المشاركة الشخصية داخل النشاط وليست مكتسبة بالتفكير والتأمل، فاللغة في هذه الجماعات لم تستخدم مرآةً عاكسة للفكر والتأمل، إذ اللغة التي تدار بينهم في سياقات العمل تعكس بحقّ كيفية تنسيق السلوك البشريّ وضبطه، لأنّ اللغة طريقة عمل وليست أداة للتأمل.[٤٠]

وهكذا استطاع مالينوفسكي التجذير لمضامين تداوليّة اللغة في حياة البدائيين, فمآلات الكلمات مترسخة في نشاطاتهم من عمل وحكايات والشعائر وغير ذلك. نعم, بهذه الطريقة يتشكّل المعنى لدى البدائيين حسب وجهة نظر براغماتية للغتهم, لكنّ براغماتية مالينوفسكي لا تخلو من الاعتبارات التكوينيّة أو النشوئيّة في محاولة لرصد مراحل النشوء الأولى لاستعمال اللغة.[٤١]غير أنّ هذا الهمّ التكويني لا يقلّل من أهمية آراء مالينوفسكي وتحليلاته البراغماتيّة, إذ ينبغي أن نراعي زاوية النظر لديه, فالأنثروبولوجيا في الأساس والمسعى علم تكوينيّ يصرف همّه الأول إلى الاعتبارات التكوينية عند رصد الظواهر الثقافية.

*** التأثير السحري, الكلام فعلًا تأثيريًّا**

في ظلّ إصرار التداوليين على الأفعال المؤسسيّة التي لا توجد إلّا تبعًا لمؤسسة إنسانية وتحيل على أعراف وتقاليد اجتماعية تمتاز بشيء من الجبرية.[٤٢] نرى أنّ مالينوفسكي كان قد سبق إلى هذا الإصرار حين رأى أنّ انصياع الناس للطقوس

(٤٠) ينظر: المصدر نفسه:٣٩٠ و ٣٩١.
(٤١) ينظر: المصدر نفسه:٤٠١.
(٤٢) ينظر: مدخل إلى التداولية،مارتن براكوبس:٤١

والشعائر ليس شيئًا مصطنعًا أو زائفًا، بل هو شيء نشوئيّ متأصل في الكينونة البشرية.[٤٣]

ما يختلف فيه التداوليون اليوم عن رؤية مالينوفسكي هو إصرارهم على اللباقة والرسمية في مجتمع أكثر رقيًا محتكم إلى القوانين الوضعية والأعراف المؤسسية ،فتركيز التداوليين على المظاهر الرسمية جعلهم متمسكين بمظاهر براغماتيّة أكثر حدة، والمقصود بالمؤسسة أنظمة من القواعد التكوينية، في ظلّها تجد كلّ واقعة مؤسسية تسندها قاعدة أو نظام من القواعد، والكلام في ظلّ مؤسسة ما هو إلّا إنجاز أعمال وفقًا لتلك القواعد.[٤٤]

من هنا جاء إلحاح التداوليين على الأفعال التي تعرف بالأفعال(الأدائيّة) التي نحاول بسطها عبر مجموعة من الأمثلة:-

أ- آمركم بالدراسة وأنهاكم عن اللعب.

ب- فُرِض عليك أداء الامتحان اليوم.

ج- رُفِعَتِ الجلسةُ.

د- أنتِ طالق

في(أ) ترى المتكلم يتمتع بمكانة مؤسسية خاصة, وتلحظ التصريح بلفظ الفعلين(آمركم_ أنهاكم) جاء على صيغة المضارع الذي فيه ضمير المتكلم مستتر, فالمتكلم يوقع الأمر والنهي بمجرد التصريح بفعلي الأمر والنهي.

وفي(ب) جاء الفعل على صيغة الماضي المبني للمجهول المسند إلى فعل الأداء، فأوقع الامتحان و ألزم به مخاطبه بمجرد التصريح بفعل الفرض.

وفي(ج) جاء على صيغة الماضي المبني للمجهول، وبه وقع رفع الجلسة بمجرد النطق بالفعل.

وفي(د)جاءالفعل جملة اسمية[٤٥], وبمجرد التصريح بالطلاق سرى مفعوله.

الأدائيات, إذن, أفعال إيقاعية يسري مفعولها بمجرد التلفظ بها، أي يتحقق محتواها القضوي ويتوجّب على المتكلم تسنّم دور مؤسساتي عند أدائها وبتعبير سيرل: ((بمجرد النطق بالفعل يسري مفعوله)).[٤٦]

---

(٤٣) ينظر: السحر والعلم والدين:٩٢.

(٤٤) ينظر: الأعمال اللغوية, سورل:٩٤

(٤٥) وهنا يجدر التنبيه إلى شيء مهم, وهو ليس بصحيح أنّ الفعل الأدائي يأخذ دائمًا صيغة(الفعل المضارع المسند إلى ضمير المتكلم) مثل: (أخْبِرُ، أثبتُ، أشكرُ ،أعِدُ...إلخ) فنعم عادةً ما يستشهد التداوليون لشرح فعل الأداء بتعبيرات تأتي على هذه الصيغة، ولكن هناك أمثلة كثيرة تخرج عنها..ينظر في هذا الشأن :نظرية الفعل الكلامي, هشام عبد الله الخليفة:٢٤٠ الهامش الخامس. كذلك :مقدمة في علمي النخاطب والدلالة د. محمد محمد يونس علي:٣٦
والسبب في هذا اللغط هو أنّ الكثير من المؤلفين لا ينوّعون في الأمثلة، بل يكتفون بمجموعة تعبيرات نمطية ، فمن أبرز الانتقادات الموجهة إلى التداولين وعلى رأسهم أوستن هو صرف عنايتهم إلى اللغة النمطية. فألفاظ الطلاق وصيغ العقود والمعاهدات والمراسيم وأداء الطقوس التي قد تؤدّى بصيغة معينة مخصوصة داخل ثقافة ما، فمثلا عند المسلمين تتحدد للبيع والشراء صيغ مخصوصة غير قابلة للتغيير، فللشهادة صيغة مخصوصة وللطلاق صيغ معينة، ففي البيع تلتزم صيغة(قد بعتك كذا) ولا يجوز(أبيعك كذا) ولا (أنا بائع كذا) ولكن مع تغير الزمن والتحولات الثقافية خضعت هذه الصيغ أيضًا للتحول...وقد أشار سيرل إلى إمكان التحول الذي قد يطرأ على الصيغة المعتادة((بمقتضاها يعدّ قول الزوج: "أنتِ طالق" (أطلقكِ)... ومن ثمّ فالتعبير بالمنطوق الذي سرى مفعوله بمجرد التلفظ به صنع واقعة جديدة هي الطلاق)). الأعمال اللغوية, سورل:٩٤. فالفعل الأدائي الذي يسري مفعوله بمجرد النطق بالفعل لا يمكن حصره وجدولته بصيغة معينة، لأنّ الاحتكام إلى الصيغة القولية المقولبة من أشد الأخطاء التي يقع فيها الدارسون.

(٤٦) بناء الواقع الاجتماعي، سيرل: ٨٨.

كذا كان من آثار التركيز المفرط من التداوليين على المظاهر الرسمية تهميش الفعل التأثيري أو مآلات الفعل الكلامي، لهذا نجد اليوم إساءة فهم للفعل التأثيريّ أهو(تحقّق فعل الكلام) أم(استيعاب مغزاه) أم(أثره في المخاطَب)؟. ولتوضيح ذلك ننظر في هذه الأمثلة: –

أ– كثر عدد العمال في المصنع, حين نحتاجك نخبرك.

ب– أنتِ طالق.

ج– بعتك هذا الكتاب.

د– إياكَ أنْ تكرّر فعلتك.

في المثال(أ) نحصل على ثلاث نتائج, النتيجة الأولى: قطع العامل علاقته بعمله، أمّا النتيجة الثانية فهي استيعاب العامل قصد مدير المصنع(= استغنينا عن خدماتك). أمّا النتيجة الثالثة فتتعلق بمشاعر المخاطب وأحاسيسه حين يسمع حكم الاستغناء عنه في العمل.

فالنتيجة الأولى(الاستغناء) نتيجة محققة ملموسة بمجرد التلفظ بالفعل، لا لشيء إلّا لأنّها نتيجة مضمونة التحقيق لدى المتكلم(= مدير المصنع) نظرًا لمكانته.

أمّا النتيجة الثانية(الاستيعاب) فمحققة أيضًا، لأنّ العامل استوعب المقصود بالكلام ، فقد اختار المدير طريقة تعبير مناسبة للاستغناء عن عامله.

أمّا النتيجة الثالثة(التأثير)، ففي حاجة إلى استبطان وتخمين، فمشاعر العامل لا يمكن معرفتها على وجه التحديد، إذ قد ينتج عن تركه العمل الحزنُ، وقد تنتج عنه السعادة (لا ندري لعلّه يرى في ترك المصنع نيلًا لحريته!.) ثمّ إنّنا قد نلحظ هذه المشاعر وقد لا نلحظها.

في المثال(ب) نحصل على نتيجتين: الأولى حدوث الطلاق وفق إرادة واحدة(= إرادة الزوج) بمجرد النطق بالحكم، أمّا النتيجة الأخرى, فتتعلق بمشاعر الزوجة التي لا نستطيع البتّ فيها: أهي حزينة بذلك أم سعيدة أم تضمر إحساسًا ما؟. لا ندري.

في المثال(ج) كذلك نحصل على نتيجتين: الأولى تحقّق البيع في اللحظة وِفق إرادتين(= إرادة البائع وإرادة الشاري).

أمّا النتيجة الأخرى فتتصل بمشاعر الشاري، بل ربّما بمشاعر البائع أيضًا، فقد يعقب البيع حزن أو سعادة أو اكتئاب أو مشاعر أخرى، وهذه المشاعر قد تُلحظ وقد تظلّ مسكوتًا عنها.

في المثال(د) أيضا هناك نتيجتان، الأولى إدراك أو استيعاب المخاطب أنّ المتكلم يحذّره، أمّا النتيجة الأخرى, فتتمثّل بردة فعل المخاطب أو بالمشاعر التي تولّدت لديه(الخوف أم التهكم أم أشياء أخرى؟.).

نخرج من كلّ ذلك إلى ضرورة التمييز بين ثلاثية(التحقيق) و(الاستيعاب)(التأثير) فالتحقيق هو وقوع الفعل بمجرد النطق به, وليس هذا داخلًا في فعل التأثير, بل هو مندمج بفعل القول، كما يتضح في فعل(الاستغناء عن العامل) و(الطلاق)، فالمتكلم, وهو ينطق بملفوظه, يحقّق فعلي الاستغناء والطلاق.

أمّا الاستيعاب فهو إدراك المتلقي مغزى الفعل أو فهمه على الوجه الذي أراده المتكلم(=المتلقي يفهم أنّ المتكلم

يُخبر، أو يُعلن، أو يهدّد....إلخ) ويتضح ذلك في المثالين(أ) و(د).

أمّا التأثير فهو مآل فعل الكلام والنتيجة البعيدة التي تترتب عليه، فقد تكون ردة فعل لفظية(موافق، أرفض، اخرس،...) وقد تكون ردة فعل جسدية(إشارة باليد، تغيير لو البشرة، ارتجاف....إلخ) وقد تكون ردود فعل نفسية كالحزن والفرح والكآبة.[٤٧]

إنّ مآل الفعل الكلامي _في الأمثلة في أعلاه_ إنْ كان متعلقًا(بالتحقّق والاستيعاب) دخل في دراسة الفعل الكلامي، لأنّ هاتين النتيجتين داخلتان في نطاق اللغة ويتوقف عليهما نجاح الفعل الكلامي، فهما متحققتان أصلًا بقوة القول وثقة المتكلم باستيعاب المخاطب قصده وثقته بنفاذ فعله فقوة الفعل _نظرًا لتوفّر الشروط المؤسسية_ كفيلة بتحقيقه بمجرد أن يدرك السامع مغزاه.

أمّا إذا كان مآل الفعل متعلقًا(بالتأثير) كالردات النفسية أو بالامتثال أو تحريك المشاعر، ففي رأي أوستن من الصعب إدماجها في نظرية الفعل الكلامي، لأن التأثير واقع خارج نطاق اللغة وليس شرطًا في نجاح الفعل الكلامي، إذ لا يمكننا التنبّؤ بمآلات الفعل. اللهمّ نعم إنّ غاية كلّ فعلٍ كلاميّ هي إيقاع تأثير ما في المخاطب، ولكن بمَا أنّ هذه التأثيرات قد تُحجب وتتطلب معرفتها الاستبطانَ فالأولى أنْ تظل بعيدة عن النظرية, لأنّها ليست أفعالًا لغوية ،إذ قد يتعدّى تأثير الفعل مقاصدَ المتكلم وتتجاوز سلطته صوب مآلات أبعد، فربّما أراد المتكلم بكلامه شيئا محدّدًا، فإذا بالمخاطب تهتز مشاعره بصورة تفوق توقعات المتكلم وأهدافه.

والحق أنّ موقف أوستن وسيرل من الفعل التأثيري غريب، وأظنّ أنّ السبب في ذلك هو الميل البراغماتي المفرط نحو (المتحقّق والمطابق للعالم الخارجي) والابتعاد عن المتوقّع أو المرجوّ لدى المخاطب، ممّا أدى إلى تركيز النظرية على الخطابات الأكثر جديّة، ومن ثمّ التركيز على الافعال المؤسسية ذات الطقوس والمراسيم التي تتحقق بمجرد النطق بها من دون المبالاة بانفعالات وآثار من تقع عليهم، فالمعول عليه في النظرية هو كيف يتحول الملفوظ إلى فعل في حالة استعماله؟. أمّا الاستجابات والعواطف وردود الأفعال فشأنٌ آخر.

إنّ موقف التداوليين من الفعل التأثيري لا يلغي حاجة النظرية التداولية إليه. فالخطاب _أيّ خطاب_ يراد به إبلاغ رسالة وإحداث أثر في من يتلقّاه، فضلًا على أنّه لا يمكن غضّ الطرف عن الجوانب النفسية لدى المتلقي، فمثلما يعول التداوليون على نيّات المتكلم وأغراضه ينبغي أن يعولوا أيضًا على استعدادات المتلقي ومدى تقبّله والطرق الكفيلة بإقناعه، والطرق الكفيلة بثنيه عن سلوك ما إذ إنّ التداوليين يعولون كثيرًا على عامل القصد والنية لدى المتكلم والمخاطب في نجاعة الفعل الكلامي وتحقّقه، فنيّة المتكلم وإنْ كانت معرفتها تلزم التحرّي والاستبطان، بيد أنّها تعدّ شرطًا جوهريًّا في تحقيق الفعل الكلامي, [٤٨]فالذي يعول على بواطن المتكلم ونياته ما الذي يمنعه من التعويل على بواطن المتلقي وتوقّع ردّات فعله؟.

(٤٧) ينظر: نظرية الفعل الكلامي، د.هشام عبد الله الخليفة: من ٨٩ إلى ٩٥.

(٤٨) الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، د.مؤيد آل صوينت: ٣٥

إنّ كلّ خطاب ناجح _في جانب كبير منه_ عبارة عن حوار يتكاشف فيه الطرفان عمّا يبطنانه، و يتبادلان نيّاتهما ويستبقان طبيعة الاستجابات عند بعضهما، فقد كان السوسيولوجيون_ من أصحاب نظرية الفعل _يدعون إلى ضرورة العناية بمواقف الكلام ومحاولة تحديد "قوة التأثير" المتوقعة مع كلّ ملفوظ في موقف ما، فلكلّ موقف لغة تناسبه, واستعمال اللغة في موقف ما يتطلب معرفة التأثيرات المتوقعة منه والآثار المترتبة عليه، ولا أظنّ أنّ التداولية تصرف النظر عن هذه الفرضية، لأنّ التداولية هي الأخرى نظرية من نظريات الفعل التي تهدف الى إحداث تغييرات اجتماعية ورصدها في المجتمع.

أمّا مالينوفسكي فتستوقفه مظاهر الجبرية الاجتماعية في الانظمة البدائية، فيرى أنّ الراحة الناجمة من الناس تجاه الطقوس _مثلًا طقوس التكريس_ واحتشادهم العام إنّما هو تأكيد وإقرار قويّ منهم بالمعتقدات، لذا يرى أنّ مفعول الشعيرة عند أداء الطقوس يسري بناءً على إيمان وعلى جلال القبول الاجتماعي ومدى تأثير السلوك الاجتماعي، وليس تماشيًا مع ضوابط مصطنعة كما في المجتمعات الحديثة.

وهذه القوة الجبريّة المنبعثة من الطّقوس هي التي تجعل الجمهور والنظارة الذين يتابعون الطقوس بمنزلة شخص واحد يؤدي شعيرة جادة وجليلة، بل حتى الأثنوغرافيّ المراقب الذي يبدو غير مهتم قد تجرفه العاطفة للاندماج، فكيف إذا كان أثنوغرافيًّا متأثرًا ومشاركًا؟!. وهكذا فإنّ الطقوس تؤسس لوجود بعض القوة التي يعتمدها منها القانون القبلي الذي يعد هو المسؤول عن القواعد الأخلاقية التي يتم نقلها إلى المبتدئين، ولذا تأتي أبهة الشعائر لدى البدائيين وتعد إعدادًا دقيقًا من أجل جعل المعتقد مؤثراً وقويًّا ومهيبًا لتعبئة القبيلة بأكملها.[٤٩]

هنا تظهر لدى مالينوفسكي النزوع إلى رصد مظاهر التأثير في هذه الطقوس، ممّا يدفعنا للتركيز على تجليات(التأثير) الذي همشته التداولية. فبالاستناد إلى ملاحظاته على أشكال الكلام في المجتمع البدائيّ يرى مالينوفسكي أنّ جوهر الموقف السحري من الكلمة عند البدائيين تستند إلى تجارب نفسية حقيقية، فالسحر اللفظي يقوم على فرضية أنّ اللفظة تستعمل دائمًا في أثناء الاتصال الحيّ المباشر مع الواقع الذي تستهدفه اللفظة، إذ تؤثر الكلمة في الشيء، والشيء يطلق الكلمة في العقل البشري.[٥٠]

لكنّ ركون التحليل الأثنوغرافي إلى التأثير السحري في حياة البدائيين لا يعني أنّ البدائي منقاد إلى السحر حدّ الاتكالية والكسل، ليس في عقل البدائي تقصيرٌ أو خمول حتميّ، فلدى البدائي جهد عقلي وبدنيّ تغنيانه عن الاتّكالية والسلوك اللاعقلاني وإلى اللجوء إلى الغيبيات في أحايين كثيرة، وهكذا فإذا ما تحطم السياج أو أتلفت البذور أو تعرّضت للجفاف والانجراف، فإنّه سوف يلجأ إلى العمل وليس إلى السّحر، إذ يسترشد بالمعرفة والعقل وبتجاربه السابقة لتخطي هذه العقبات, لكنّه في مقابل ذلك إذا لم تسعفه تجاربه في تخطي الأزمات والنوازل غير الخاضعة للتعليل، ويعلم أنّ معارفه قاصرة عن احتوائها, سيحاول عندئذٍ مواجهتها بالسحرة واللجوء إلى طلب المدد من الغيبيّات.[٥١]

(٤٩) ينظر: السحر والعلم والدين: ٩٢_٩٣.
(٥٠) المصدر نفسه:.٤١٠
(٥١) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠

من تجليات عناية مالينوفسكي بالمظاهر الكرنفالية في منظوره البراغماتي وقوفه عند استجابة الإنسان لتأثيرات السحر، فالخطاب الذي يتزامن والسحر قد يبدو مظهرًا من مظاهر عدم الجدية في رأي التداوليين، لكنّه يحظى عند الأنثروبولوجيين بعناية خاصة، لأنّ للسحر جاذبية خاصة، بل حتى بالنظر إلى العقل العلمي الصافي، فممارسة السحر من المهن المستمرة التي تزاحم العلم وتتشبّه به وتحمل اسمه، فهو قائم على قدم وساق في أرقى مؤسسات مجتمعاتنا المدنية.(٥٢) إنّه يعيد إنتاج نفسه بقوة في كلّ عصر بصيغ أخرى وتحت أسماء أخرى، فلا يظنّ ظانّ أنّه اختفى, فضلًا على ذلك تعود هذه الجاذبية إلى أنّ السّحر يثير القوى الذهنية الخفية في الإنسان، ويتعلق به أمل الإنسان العالق في عالم الغيب وطموحاته المرتبطة بالمعجزات.(٥٣)

وهكذا لايفهم من السحر إلّا أنّه التأثير في الآخرين عن طريق الأقوال والرقى والنفث في العقد وهذا التأثير فعل عمليّ له قوة إنجاز وقوة تأثير كبيرتين، فهو((مجموعة من الأفعال العملية البحتة يجري القيام بها كوسيلة لتحقيق غاية)).(٥٤)

ما يلفت النظر هنا هو أنّ نظرة الأنثروبولوجيين إلى السّحر لا تخلو من جديّة, لأنّ السّحر في نظرهم لا يخلو من العلم على أقل تقدير,لأنّ البدائيّ ينظر إليه بهذا المنظار، فالسّحر كان وسيلة وحيدة لإخضاع ظواهر الطبيعة لسيطرته.(٥٥)

يتجلى أثر السحر بوسائط كثيرة، لذا وجدوا أنّ السّحر هو جذر العلم وأساسه، فكلا الاثنين قادران على تغيير العالم في نظر البشر، إذ كان الساحر عالِمًا في نظر الإنسان البدائي ومعتقدِه، لأنه يستطيع إنتاج الفارق فكريًّا ومادّيًّا، فنظرة البدائي للساحر كنظرتنا نحن إلى العالِم الذي هو منتِجٌ للأفكار بمقدوره تغيير العالم.

أمّا من حيث الوسائط فيتشابهان أيضًا، ووفق هذه المعادلة: –

١–(السحر_ الطقس)

٢–(العلم_ التقنيّة)

العلم يتوقف على التقانة، والسحر يتوقف على الطقس، فالطقس هو أساس كلّ تقنية، إذ لا يخلو طقس السّحر من تعقيد ومحاولة التكييف بين المتباينات سواء ماديًّا أم معنويًّا، وإلّا فهو على الصعيد الماديّ أساس علم الكيمياء، لهذا السبب كان لعلماء الإسلام موقف غير محمود من الكيمياء(٥٦) إذ لم ينفصل الكيمياء عن السحر إلّا بعد جهد جهيد، أمّا على الصعيد المعنوي فللسحر لغة وجهاز مفاهيمي خاص، مثلما نرى اليوم أنّ لكلّ علمٍ لغةً خاصة به وجهازًا مفاهيميًّا خاصًّا به، ولذا نظر الأنثروبولوجبون إلى الطقوس والمعتقدات السحرية على أنّها ضرب من التعبير عن إيمان بعلم لم يولد بعد، أو على أنّه استيعاب غير واعٍ لحقيقة حتمية أو صيغة متأخرة من صيغ وجود الظاهرات العلمية(٥٧).

(٥٢) ينظر_مثلًا_السحر وعلم النفس,د.موفق الحمداني:٣٣-٣٤.
(٥٣) ينظر:السحر والعلم والدين:١٠١.
(٥٤) المصدر نفسه:١٠٢.
(٥٥) ينظر: الفولكلور في العهد القديم,جيمس فريزر: مقدمة المترجمة:٢٩.

(٥٦) مثلا راجع أقوال ابن خلدون في هذا الشأن.
(٥٧) ينظر: تايلور, د.أحمد أبو زيد:٩٢. مقالات في الأناسة، كلود ليفي شتراوس:٢٥_٢٦_٢٧.

هكذا وجد مالينوفسكي في السحر على غرار الأنثروبولوجيين قوة تأثير قصوى على البدائيين، إذ يأخذ السحر شكل السرّية والخفاء على كلّ الأصعدة, لاسيّما اللغة السحرية التي تتعمد الغموض واللبس بغية التأثير والامتثال, وهذا ما يميز لغة الدين عن لغة السّحر, فلغة السّحر غامضة تأثيرية تعزّز السّرية, على خلاف لغة الدّين التي تكون واضحة مفهومة علانيّة.[٥٨] بل حتى عند استعارة ألفاظ الحقل الخاص بالسحر, فإنّ((القوة التي تمتلكها كلمات: سحر، وتعويذة، ورقيّة، ويخلب اللبّ ويسحر، عند استخدامها في الشّعر تشهد على ذلك، إذ القيمة الداخلية للكلمات والقوى العاطفية التي لا تزال تطلقها تظل الأطول بقاء, ويجري الكشف عنها بشكل أوضح)).[٥٩]

مع أنَّنا لا نستطيع تجريد لغة السحر عن الإجراءات التي تصاحبه، كالإشارات والتلميحات والمواد التي تستخدم فيه، ولكنّ لغة التعويذة مبنية إلى حدّ بعيد على نمط السحر نفسه، لأنّ الطقوس والكلمات يجري اختيارها من أجل الأسباب نفسها كمواد للسحر، فمركزية السّحر في الكلمة، وإلّا فمعرفة السّحر تعني معرفة التعويذة، وفي تحليل أيّ فعل من أفعال السحر الضارّ يتمحور الطقس حول النطق بالتعويذة، فصيغة التعويذة هي دائمًا جوهر الأداء في للسحر.[٦٠]

السّحر، على اختلاف أنواعه قائم على المحاكاة، أي محاكاة غايته وما يستهدفه، وعند الأداء كذلك، إذ تؤدّى الطقوس بأسلوب يتّسم بالمحاكاة، وهنا تبرز مقولة جيمس فريزر((الطقوس تحاكي غاياتها.))[٦١] فلغة السّحر تجنح لأن تكون غائيّة تستهدف مآلات السّحر بالتمثيل والمحاكاة وإن اعتورها شيء من اللبس والغموض وعدم الدّقة, وهذا سرّ من أسرار جاذبية السحر وتأثيره في إخضاع الناس .

تتجسد كفاءة السحر بوجود ثلاثة عناصر أنموذجية، وهي عناصر لغوية[٦٢]: –

١– التأثيرات الصوتية، أي محاكاة الأصوات الطبيعية، كصفير الريح، وهزيم الرعد، وهدير البحر وأصوات الحيوانات، فهذه حسب اعتقادهم ترتبط بالرغبة التي يجب تحقيقها عن طريق السّحر.

٢– استعمال الكلمات التي تناشد أو تحدّد أو تأمر الهدف المنشود، فالمشعوذ حين يستهدف أحدًا يستعمل الكلمات التي تدل على أعراض المرض الذي يصاب به، أو يصف نهاية ضحيته بصيغة قولية مميتة. وكذا في السحر العلاجي يقدم الساحر كلمات تدل على الصحة المثالية والقوة الجسدية وفي

(٥٨) ينظر: رادكليف براون, قباري محمد إسماعيل:٣٠٨.
(٥٩) المصدر نفسه: ١٠٢.
(٦٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٠٦_١٠٧.وينظر:ا للغة في المجتمع , م.م لويس:١٣٩.
(٦١) المصدر نفسه: ١٠٥, الطقوس تحاكي غاياتها: مقولة ضابطة للمنهج التطوري لفريزر ولتأويلاته الثقافيّة الرّمزية التي يبنيها على استمرار البدائي في المدني, نأخذ على سبيل التوضيح قراءته لشعيرة(الأضحيّة)التي استمرّ تعاطيها بشرّيًّا منذ عهد سيدنا إبراهيم, فهي من خلال أمثلة كثيرة كان قد رصدها عند البدائيين وفي حضارات كثيرة, بمنزلة معاهدة سلام متبعة عند البشر, فظلت رمزًا على التعاقد والوفاء بالعهد. رأى فريزر أن ذبح الأضحية وشقها نصفين يرمز إلى الجزاء الذي يلحق من ينقض العهد ويخون اليمين, وأنّ مرور المتعاهدين بينهما يرمز إلى التطهير الشعائري أو السّر المقدس. ينظر: الفولكلور في العهد القديم:٣٥٠.
(٦٢) المصدر نفسه:١٠٧

السحر الاقتصادي يصور بالكلمات نمو النباتات واقتراب الحيوانات ووصول السمك.

وهنا تبرز وظيفة المحاكاة حين يستخدم الساحر الكلمات والجمل التي تعبر عن الانفعال العاطفي، فيتعين عليه إبراز نبرات الغضب والحنق فيكرر أفعالاً، مثل(اكسر)، و(الوِي)، و(أدمّر) فهذه الكلمات تستهدف أعضاء جسد الضحية. وبتعبير التداوليين تعدّ هذه الأفعال التي نطق بها الساحر من الأدائيات التي تتحقق بمجرد النطق بها, لأنّ العقل البدائي يؤمن بذلك.

٣- في التعويذة تلميحات أسطورية وإشارات إلى الأسلاف وأبطال الثقافة الذين يُتلقى منهم السحر ووظيفة هذه التلميحات الأسطورية _حسب مالينوفسكي هي تأكيد الثقة بالسحر واستمالة الناس إلى الإيمان به، فللأسطورة وظيفة براغماتية تتجسّد في فرض المعتقد، فهي لا تفسّر بل تضمن وتؤكد، ولا تشبع الفضول بل تعزّز الثقة في القدرة. وهنا يتوجه مالينوفسكي بالنقد إلى النظرية السببيّة في دراسة الأساطير، لأنّها تغاضت عن ركيزتين مهمتين في الأسطورة، هما العلاقة العميقة بين الأسطورة والعبادة، والوظيفة البراغماتية لها[٦٣].بذلك يعدّ مالينوفسكي أول من أبرز المضمون التداولي في الأسطورة.

من يقرأ مالينوفسكي لم يتبيّن بوضوح الفعل العملي عن الفعل التأثيريّ عند تحليله كلمات السحر في تروبرياند، ولعلّ هذه القضية من أدقّ النقود الموجهة إليه، إذ((لم يرَ الفرق بين الأقوال التي يمكن تقييمها بالنسبة لشروط الحقيقة وبين الأقوال التي تقيّم بالنسبة لتأثيرها على العالم)).[٦٤]

لكن ما يغطي على هذا التقصير هو أنّ مالينوفسكي انشغل بأبعاد استعمال اللغة عمليًّا وتأثيريًّا في وعي البدائيين، فلامس أشياء جوهرية عن الرؤية البراغماتية للغة، لكنه لم يجنح إلى صياغة نظرية مقننة لتحليل الكلام, فالإنجاز والتأثير قد يندمجان ببعضهما. فبدلًا من الخوض في التحليل النظري للكلمات والصيغ السحرية نراه ينشغل بالأسئلة التكوينية، مثل(كيف نشأ الاعتقاد السحري؟.) وهنا يحاول عبر إجابته أنّ يجذّر للاعتقاد السّحريّ في تجارب الإنسان الأولى مع العجز والضعف ويربط ذلك بردات فعل الإنسان ورغباته وتأثّره وتوقعاته للخلاص، وهنا تبرز الكلمة وفاعليتها على التنفيس، فإنّ الكلمات التي ينطق بها الساحر وسلوكه الأعمى يسمحان للتوتر الفسيولوجي المكبوت بالتبدّد.[٦٥]

وشيئا فشيئا كَشِف للإنسان الطقس السحري ومبادئ السحر، لأنّ هذه الطقوس حيكت أو صيغت صياغة مبنية على التّشابه، فكما تقدم أنّ الطقوس تتمثّل حالات الإنسان ومشاعره وتتشبه بها، ومن ثم تحاكي آماله وغاياته.

وهكذا يتجلى(فعل التأثير) وهو يتراوح بين رغبات الإنسان في التنفيس عن كربه، وبين ردات فعله تجاه المصاعب، وبين التنبؤ بالنهايات المرجوّة، وبين التأثير السحريّ المتحقق في كيانه. لذا يرى مالينوفسكي أنَّ ثمة تجذّرًا عميقًا في الذهن البدائيّ للاعتقاد بأنّ للكلمة بعض السلطة على الشيء وأنّها تشارك في طبيعته, أو أنّها مشابهة أو مطابقة في معناها المضمّن مع الشيء, وتأكيدًا لرأي أوغدن وريتشاردز يذهب إلى أنّ الموقف السحري والبدائي تجاه الكلمات لها ترسّبات في وعي

(٦٣) المصدر نفسه: ١٢١.
(٦٤) الأنثروبولوجيا الألسنية: ٣٥٦.
(٦٥) ينظر: السحر والعلم والدين: ١١٦.

الإنسان المدني, وهو المسؤول عن قدر كبير من الاستعمال الخاطئ وإساءة الفهم والاستعمال الزائف للغة.[٦٦]

إن كفاءة السحر، وقدرته العملية في وعي البدائي ترتبطان إلى حدّ بعيد بالتجارب القاسية التي مني بها الإنسان، لكن الإنسان حين انكشف ضعفه ولم يقوَ على مواجهتها بحث عن بديل ــولو تخيّلًاــ فهنا برز دور السّحر، ونشأ الاعتقاد بأنّ((السحر يمنح الإنسان القدرة على التحكّم بأشياء معينة.))[٦٧]

أدت تخيّلات الإنسان وعاطفته وإقراره بضعفه إلى أن يبقى تحت تأثير السحر، لهذا تعزّز الاعتقاد بالسحر وجدواه العمليّ، وارتقى إلى مصاف الواقعة التجريبية في المجتمع البدائي، ذلك((أنّ السحر والشخصية المتميزة في كلّ المجتمعات المتوحشة مترافقان، وهكذا يتوافق السحر أيضًا مع النجاح الشخصي والمهارة والشجاعة والقدرة العقلية، ولا عجب أنّه يعد مصدر نجاح)).[٦٨] فلا شكّ والحال هذا أن يأخذ السّحر مظهرًا رسميًّا في الكيان البدائي, نظرًا لقوة الامتثال والتبجيل إزاء هذه المظاهر.

وعندئذ ليس في التأثير إسفافًا بالأداء المؤسسي وبالعمل الجدي, إذ تتلاحم في الفعاليات البدائية ثلاثية(التحقيق)و(الاستيعاب)(التأثير) وتندمج, فلا يمكن فصل شيء منها عن الآخر. لا نبادر هنا للقول بأن التاثير في حدّ ذاته فعل, أو يخلص الفعل بأن يكون تأثيرًا, لكنّ الفعل مع ذلك في كثير من المظاهر شيء جوهري في الفعل وأساس في استحالته إنجازًا.

ليست المؤسسة امتيازًا مدنيًّا أو غربيًّا, فالطابع المؤسسيّ متأصل في الاستعدادات البدائيّة للبشر حتى في أشد أعماله كرنفالية وأشد سلوكياته عفوية تلمح نزوعًا جدّيًّا ورسميًّا, وهنا يتضح عندنا مغزى مالينوفسكي من دراسة هذه الطقوس والشعائر والممارسات السحرية, وهذا ردّ على الرِّهان الغربيّ الذي أخذ يتمحور حول الضوابط المؤسسية وينظر إلى الآخر نظرة استهجان ودونية فيستكثر عليه كلّ مظاهر الجدّية والانضباط.

*** الخاتمة**

انتهت الدراسة إلى مجموعة من النّتائج يمكن إجمالها في نقاط: –

١– ظهرت التداولية في البحث الأنثروبولوجي إثر حاجة اقتضتها الطرائق العلمية في الميدان، فقد كانت حاجة الأنثروبولوجيين إلى تعلّم لغة السكان الأصليين ومحاولة ترجمة سلوكياتهم وفعالياتهم الاجتماعية ورؤاهم حاجة ماسّة لصياغة وصف دقيق لحياة البدائيين، فتطابقت نظرة الأنثروبولوجيين مع التداوليين في أشياء كثيرة، ومن يتفحّص الخطاب الأنثروبولوجي يجد أنّه يقارب قضايا جوهرية في النظرية التداولية.

٢– استلهم مالينوفسكي نتاجات الوضعيين الأوائل، لكنه نجح في بلورة طريقة نظر خاصة به تنسجم مع أهدافه، من هنا قارب أشياء جوهرية في علم اللغة .

٣– كانت لطريقة مالينوفسكي(الملاحظة المشاركة) وإصراره على فهم لغة البدائيين وتعلمها الأثر الكبير في بلورة نظرته وتحليلاته التداولية.

---

(٦٦) المصدر نفسه: ٤٠٩.
(٦٧) المصدر نفسه: ١١٤.
(٦٨) المصدر نفسه: ١١٩.

٤- النظر إلى اللغة على أنها ضرب من العمل يُعدّ من أخطر إفرازات الحقل الأنثربولوجي، فقد اتخذت بعد مالينوفسكي مقولة تنطلق منها الدراسات التداولية .

٥-كما تعدّ مقولة التأثير السحري للغة مقولة تؤكد على جدوى متابعة الأثر الذي يتركه الفعل الكلامي على السلوك، مع هذا همّش المنظرون مثل أوستن وسيرل هذه المقولة التي أثبتت الأيام حاجة التحليل التداولي لملاحقة التأثيرات التي تحدثها اللغة في الإنسان .

٦- لم تكن نظرة مالينوفسكي إلى البدائيين دونية، فقراءاته الميدانية تؤكد حرصه على التجذير لمظاهر رسمية كثيرة في حياة البدائيين.

*** المراجع**

الأعمال اللغوية بحث في فلسفة اللغة، جون ر. سورل، ترجمة :أميرة غنيم، مراجعة محمد الشيباني، المركز الوطني للترجمة،تونس،٢٠١٥م.

الأنثروبولوجيا الألسنية، ألسندرو دورانتي، ترجمة: فرانك درويش، المنظمة العربية للترجمة،٢٠١٣ م.

بناء الواقع الاجتماعي من الطبيعة إلى الثقافة، ترجمة وتقديم :حسنة عبد السميع ،مراجعة إسحاق عبيد، المركز القومي للترجمة،القاهرة،٢٠١٢.

تاريخ النظرية الأنثروبولوجية، توماس هايلاند إيركسون وفين سيفرت نيلسون، ترجمة :أ.د لاهاي عبد الحسين، منشورات الضفاف، بيروت،٢٠١٣م.

تايلور, د.أحمد أبو زيد, دار المعارف بمصر, د-ت.

التداولية، جورج يول، ترجمة :د.قصي العتابي، ط١،الدار العربية للعلوم ناشرون،لبنان،٢٠١٠م.

الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، د.مؤيد آل صوينت, مكتبة الحضارات, بيروت,٢٠١٠م.

رادكيف براون, د.قباري محمد إسماعيل, منشأة المعارف,الأسكندرية,١٩٧٧م.

رسالة منطقية فلسفية، لودفج فتجنشتين، ترجمة: د.عزمي إسلام، مراجعة وتقديم: د.زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٦٨م.

السحر والعلم والدين ومقالات أخرى، بونيسلاف مالينوفسكي، ترجمة: عمران أحمد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة،دمشق،٢٠٢٢م.

علم الدلالة, ف. بالمر, ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة, مطابع كلية الآداب, الجامعة المستنصرية,١٩٨٥م.

الفولكلور في العهد القديم، جيمس فريزر، ترجمة : د.نبيلة إبراهيم، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦م.

القريب والبعيد قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، حسن رشيق، تعريب وتقديم: حسن الطالب، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء،٢٠١٨م.

كيف تفكر كأنثروبولوجي, ماثيو أنجيلكه, ترجمة :عومرية سلطاني, الشبكة العربية للأبحاث والنشر,٢٠٢٠م.

كيف ننجز الأشياء بالكلام ،جون لانكشو أوستن، ترجمة :عبد القادر قنيني، ط٢،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء،٢٠٠٨م.

اللغة في المجتمع ، م.م لويس، ترجمة :تمام حسان وإبراهيم أنيس، دار إحياء الكتب العربية، بيروت،١٩٥٩م.

مدخل إلى التداولية، النظريات المؤسسة أفعال الكلام والتداولية المعرفية والتداولية المدمجة، مارتين براكوبس، ترجمة :د.علي يوسف أسعد، دار صفحة سبعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.

مدخل جديد إلى الفلسفة, د.عبد الرحمن بدوي, دار المعارف الإسلامية,طهران,١٤٢٨هج.

معجم العلوم الاجتماعية ، تحرير كريغ كالكهون، ترجمة :معين رومية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،قطر،٢٠٢١م.

معنى المعنى دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية، أوغدن ورتشاردز، قدم للكتاب وترجمه: د.كيان أحمد حازم يحيى، دار الكتاب الجديد.

مقالات في الأناسة، كلود ليفي شتراوس، اختارها ونقلها إلى العربية: د.حسن قبيسي، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع،.

مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، د.محمد محمد يونس علي،ط١،دار الكتاب الجديد المتحدة،طرابلس،٢٠٠٤م.

المنهج التداولي محاولة لتأسيس منهج سوسيو-أنثروبولوجي جديد, د.يحيى حسين زامل,أهوار للنشر والتوزيع,بغداد,٢٠٢٢م.